جامعة المنيا

كلية دار العلوم

الملامح الحضارية للصقالبة من خلال رسالة ابن فضلان

دكتـــور

أحمد توني عبد اللطيف



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يحتل " **ابن فضلان** " المكانة الأولى بين الرحالة الذين زاروا الأصقاع الشمالية الغربية من الاتحاد السوفيتي ، ولقد نال برسالته شهرة واسعة ذائعة الصيت ، لاسيما وأن هذه الرسالة تعد وثيقة على جانب كبير من الأهمية لأنه سجل فيها أحوال البلاد والعباد الذين مر بأراضيهم .

إذ سجل الملامح الدينية ، والإجتماعية ، والإقتصادية ، والعلمية ورسوم الحكام ، وبعض العجائب وغير ذلك . ولأهمية عمل " **ابن فضلان** " ودقته المتناهية فيما لاحظ ووصف ، يذكر المستشرق الروسي " فلاديمير مينو رسكي " أنه أعطى وصفا دقيقاً لحظة دفن زعيم روسي حتى لقد استطاع أحد الرسامين الروس في نهاية القرن التاسع عشر أن يرسم صورة حية لذلك الحفل اعتماداً على وصف ابن فضلان ، والرسم ما زال موجوداً في المتحف التاريخي في موسكو .

ويذكر " **كريتشن** " في روايته " أكلة الموتى" تعليقات متعددة حول دقة " **ابن فضلان** " لوصف بعض ما شاهده في الشمال وكيف أن عمليات التنقيب والحفريات الأثرية الحديثة

أكدت تطابق مثل هذه المواقع مع وصف ' **ابن فضلان** ' لها أكثر من ألف عام مضت [١] .

ولأهمية هذه الرسالة كانت استجابة الخليفة العباسي " المقتدر بالله " (٢٩٥- ٣٢٠ هـ / ٩٠٨-٩٣٢ م) لرغبة ملك **الصقالبة** " ألمش بن يلطوار " ، ولقد غادر الوفد بغداد في الحادي عشر من صفر عام ثلثمائة وتسع هجرية الموافق الحادي والعشرون من يونيو عام تسعمائة وواحد وعشرين ميلادية ، وقد وصل الوفد للصقالبة في الثاني عشر من المحرم عام ثلمائة وعشر هجرية الموافق الثاني عشر من مايو عام تسعمائة واثنين وعشرين ميلادية .

وتتجلي أهمية هذه الرسالة في كشف النقاب عن بعض الملامح الدينية ، ورسوم **الصقالبة** ، والملامح الإجتماعية والإقتصادية ، والعلمية .

وانطلاقاً من هذه الأهمية قمت بتسطير هذا البحث المتواضع في تمهيداً وفصليين .

أما **التمهيد** : فحاولت فيه إعتماداً علي المسعودي والطبري وياقوت ، إلقاء الضوء علي **الصقالبة** ؛ بلاده وملوكه

---

(١) **راجع ابن فضلان :**
رسالة ابن فضلان ، تحقيق د . سامي الدهان ص ١٥٥ حتى ١٥٨
مكتبة الثقافة العالمية – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٩٨٧م .

وبعض طباعهم وغير ذلك من الجوانب الأخري ، وقد أفدت من المسعودي في تحديد الموقع كما أن الطبري ألمح إلي صراع وقع بينهم وبين الإمبراطورية البيزنطية ، وبالطبع رسالة إبن فضلان هي المصدر الأساسي لذلك .

أما **الفصل الأول** فجاء ليعطي نبذه عن ' **ابن فضلان** ' ورحلته من حيث تكوين الوفد وسبب إرساله ، وهدفه الديني والسياسي ، والبلاد التي مرت بها والتعرف علي بعض العادات والتقاليد ، وبعض رسوم الملك والرعية ، كما ألمح هذا الفصل إلي رؤية الغرب والشرق " **لابن فضلان** " .

ولقذ ألمح السير " توماس أرنولد "[1] في كتابه " الدعوة إلي الإسلام " أن بلاد البلغار كانت تعرف الإسلام ويرجع الفضل في ذلك إلي تجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون في الفراء وسائر السلع ولقد كانت رسالة " **ابن فضلان** " من باب تثبيتهم علي الدين وتعليمهم مبادئ الإسلام وشعائره ، وهذا يتفق مع ما جاء عند " **ابن فضلان** " .

---

(١) سير ت . و . أرنولد :

" الدعوة إلي الإسلام " تحقيق حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي ، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ص ٢٠٨ .

أما **الفصل الثاني** فجاء ليوضح الملامح الحضارية لدي **الصقالبة** والتي تمثلت في رسوم **الصقالبة** وأوضحنا من خلالها كيفية استقبال ملكهم للوفد وأيضا مدّ المائدة ، وبعض الرسوم الآخري .

كذلك أوضح الملامح الإقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة وكيف كانت لديهم بعض أنواع الفاكهة كالرمان والتفاح غير النباتات الآخري التى كان يستخدمها السكان في غذائهم .

كذلك بعض أنواع التجارات التى كانوا يقومون بها مع الروس ومملكة الخزر .

كذلك ألمحت الدراسة إلي الملامح الإجتماعية كحياة الأسرة وبعض قواعد الميراث ، وبعض عادات الأكل والشراب، والبكاء علي الميت .

كذلك ألمحت الدراسة أيضاً إلي وسائل الضبط الإجتماعي في حد الزنا والقتل والسرقة ، وأيضاً أشير في هذا الفصل إلي الملامح الدينية وإتضح ذلك في احترام الخليفة لسماع الكتاب حيث كان الملك والحضور وقوف كما أن الملك استجاب إلي تغيير اسمه كملمح ديني ، كما أنه استجاب لإفراد الإقامة في الصلاة بدلاً من التثنية عملاً بمشورة " **ابن فضلان** " ، كما أن الملك حارب بعض الخارجين عليه في محاولة منه لنشر الإسلام أيضاً أشارة الدراسة إلي بعض الملامح العلمية ممثلة في رؤية

بعض النجوم والكواكب وكذا ملاحظة الشفق الأحمر وقصر الوقت وبعض السواعق وغير ذلك من الملامح العلمية ,

ولقد حاولت تتبع سير الوفد منذ خروجه من بغداد ماراً ببعض البلدان التي ذكرت أهمها ولم أتعرض لها جميعاً حتي لا يخرج البحث عن جادة الطريق ، غير أنه عند وصول الوفد إلي بلاد **الصقالبة** حاولت أن أتتبع الملامح الدينية والإجتماعية والإقتصادية والعلمية ، وكذلك رسوم **الصقالبة** .

ولقد اعتمدت في هذه الدراسة علي عدد من المصادر الأصلية (كرسالة " **ابن فضلان** " وما جاء عند كل من : ابن خرداذبة ، والإصطخري ، وابن رستة ، وابن حوقل ، والمسعودي ، وياقوت الحموي) ولقد حاولت مقابلة النصوص في هذه الكتب لخدمة الموضوع .

فإن أصبت فهذا من توفيق الله وإن أخطأت فمن نفسي ، وعلي الله قصد السبيل .

أحمد تونـي



تمهيد

من هم الصقالبة ؟

تمهيد :

من هم الصقالبة ؟

ذكر ياقوت [١] أن الصقلاب الرجل الأبيض ، وقيل : الصقلاب الرجل الأحمر ؛ و**الصقالبة** جيل حمر الألوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر [*] في أعالي جبال الروم ، وقيل للرجل الأحمر صقلاب على التشبيه بألوان **الصقالبة** ، وقال

---

* **الخزر** : اسم اقليم من قصبة تسمي إتل ، وإتل اسم لنهر يجري إلى الخزر من الروس وبلغار ، وإتل مدينة والخزر اسم المملكة ... والإتل قطعتان ، قطعة على غربي هذا النهر المسمى إتل وهي أكبرهما ، وقطعة شرقية والملك يسكن الغربي منها ، ويسمى الملك بلسانهم يلك ، ويسمى أيضاً باك. والخزر مسلمون ونصارى وفيهم عبدة الأوثان ، وأقل الفرق هناك اليهود على أن الملك منهم . وبلادهم بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند قريب من سد ذي القرنين .

ويقول ابن رستة : بلاد الخزر بلاد عريضة يتصل بإحدى جنباتها جبل عظيم ، وهو الجبل الذي ينزل في أقصاه طولاس ولوغر ، ويمر هذا الجبل إلى بلاد تفليس ، ولهم ملك يقال له " إيشا " والملك الأعظم إنما هو " خزر خاقان " .

راجع : **ياقوت الحموي** : ت ٦٢٦هـ ، معجم البلدان ، مادة خزر ، جـ٢، ص٤٢٠ - ٤٢١ .

ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص١٣٩ .

غيره : **الصقالبة** بلاد بين بلغار وقسطنطينية وتنسب إليهم الحرم **الصقالبة** وأحدهم صقلبي ، وهم من أبناء يافث بن نوح ، عليه السلام .

وقيل إن الرومي والصقلبي والأرميني والإفرنجي أخوة وهم بنو لنطى بن كسلوخيم بن يونان بن يافث سكن كل واحد منهم بقعة من الأرض فسميت به .

وبعد إلقاء هذه النظرة من جانب ياقوت التي فسر فيها **الصقالبة** وموقع بلادهم نأتي إلى رأي المسعودي (٢) الذي سيلقي بعض الأضواء على وصف **الصقالبة** وبعض ملوكهم فيقول :

الصقالبة : من ولد مار بن يافث بن نوح ، وإليه يرجع سائر أجناس **الصقالبة** ، وبه يلحقون أنسابهم ، هذا قول كثير من أهل الدراية ممن عني بهذا الشأن ، ومساكنهم بالجدى إلى أن يتصلوا بالمغرب ، وهم أجناس مختلفة وبينهم حروب ، ولهم ملوك ، ومنهم من ينقاد إلى دين النصرانية إلى رأي اليعقوبية ، ومنهم من لاكتاب له ولا ينقاد إلى شريعة ، وهم جاهلية لا يعرفون شيئا من الشرائع ، وهؤلاء أجناس : فمنهم جنس كان الملك فيهم قديما في صدر الزمان ، وكان ملكهم يدعى "ماجك " وهذا الجنس يدعى ولينانا ، وكان يتلو هذا الجنس في القديم سائر أجناس **الصقالبة** ؛ لكون الملك فيهم ، وانقياد سائر ملوكهم إليه ، ثم يتلو هذا الجنس من أجناس **الصقالبة** "اصطبرانة" ، وملكهم في هذا الوقت يدعى " بصقلانح " ، وجنس يقال له

دلاونة ، وملكهم يدعى " وانج علاف " وجنس يقال لهم نامجين وملكهم يدعى " عزانة " ، وهذا الجنس أشجع أجناس **الصقالبة** وأفرس ، وجنس بدعى منابن ، وملكهم يدعى " زنبير " ، ثم جنس [يقال له سرتين وهو جنس] عند **الصقالبة** مهيب لعلل يطول ذكرها وأوصاف يكثر شرحها ، ونفرتهم من ملة ينقادون إليها ، ثم جنس يقال له صاصين ، ثم جنس يقال له جروانيق ، ثم جنس يقال له خشانين ، ثم جنس يقال له برانجابين ، وما سميناه من أسماء بعض ملوك هذه الأجناس فسمة معروفة لملوكهم ، والجنس الذي سميناه المعروف بسرتين يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات فيهم الملك والرئيس ، ويحرقون دوابه ، ولهم افعال مثل أفعال الهند .

وبعد هذا العرض من جانب المسعودي الذي استعرض فيه ملوكهم وأجناسهم يومئ الطبري [٣] نحوهم بشذيرة حيث يذكر :

إن **الصقالبة** غزت الروم في خلق كثير ، فقتلوا منهم وخربوا لهم قرى كثيرة حتى وصلوا إلى قسطنطينية وألجئوا الروم إليها ، وأغلقت أبواب مدينتهم ، ثم وجه طاغية الروم إلى ملك **الصقالبة** أن ديننا ودينكم واحد ؛ فعلام نقتل الرجال بيننا ! فأجابه ملك **الصقالبة** أن هذا ملك آبائي ، ولست منصرفا عنك إلا بغلبة أحدنا صاحبه ؛ فلما لم يجد ملك الروم خلاصا من

صاحب **الصقالبة** ، جمع من عنده من المسلمين ، فأعطاهم السلاح ، وسألهم معونته على **الصقالبة** ، ففعلوا ، وكشفوا **الصقالبة** .

وهنا يوضح لنا الطبري أن ثمة عداوة كانت بين **الصقالبة** والامبراطورية البيزنطية وقد حاول امبراطور بيزنطة أن يتشح بمظلة الدين ليقترب من **الصقالبة** على من يقاتلهما من عدو لكن ملك **الصقالبة** اعتبر أن أرض بيزنطة امتداد لملك آبائه وتلك إشارة وردت فيعام ٢٨٣ هـ أي قبل رحلة **ابن فضلان** إلى **الصقالبة** بحوالي ست وعشرين عاما .

و**الصقالبة** هم سكان الشمال في أوربا على أطراف نهر الفولجا وعاصمتهم على مقربة من " قازان " اليوم في خط يوازي مدينة موسكو .

تلك لمحة يسيرة عن **الصقالبة** : موقع بلادهم وأجناسهم وملوكهم وموقع بلدهم الحالية كما أمدتنا به بعض المصادر والمراجع .

الفصل الأول

نبذة عن ابن فضلان ورحلته

أ- ابن فضلان في نظر الشرقيين والغربيين.

ب- هدف الرحلة وأهميتها وظروف العصر.

ج- وفد الرحلة وبعض البلدان التي مر بها قبيل وصولهم للصقالبة .

الفصل الأول :

نبذة عن ابن فضلان ورحلته

أ- ابن فضلان في نظر الشرقيين والغربيين

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى الخليفة العباسي " المقتدر بالله " " ٢٩٥ - ٣٢٠هـ / ٩٠٨ -٩٣٢م " ومولى للقائد محمد بن سليمان الذي أفلح في هزيمة الدولة الطولونية وإعادة مصر إلى حظيرةالخلافة العباسية عام ٢٩٢هـ / ٩٠٥م (٤).

والمصادر التاريخية والجغرافية لا تزودنا كثيرا بمعلومات عن تلك الشخصية التي أسهمت في دراسة المجتمعات وقدمت صورة عن مناطق الرحلة اجتماعية وانثروبولوجية (*)

(*) **الأنثروبولوجية** : في تعريفها للانثروبولوجية كتبت الباحثة الامريكية الشهيرة مارجريت ميد M. Mead (١٩٠١ - ١٩٧٩م) تقول : نحن نصف الخصائص الإنسانية البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الأزمان وفي سائر الأماكن ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية كأنساق مترابطه ومتغيره وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة كما نهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية والتكنولوجية ومن هنا تعتني الانثروبولوجية بدراسة الإنسان من الناحيتين العضوية والثقافية .

راجع قصة الانثروبولوجية فصول في تاريخ علم الإنسان للدكتور حسين فهيم

سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٦م ، ص١٣ ، ١٤ .

ولقد وردت اشارات عن رحلته في بعض المصادر الجغرافية مثل " ابن حوقل " و" المقدسي " لكن " ياقوت الحموي" نقل عنه كثيرا في كتابه معجم البلدان لاسيما مادة بلغار

ومما لاشك فيه أن " **ابن فضلان** " يحتل مكانة بارزة بين أصحاب الرحلات حيث قدم لنا دراسة وصفية تحليلية تنم عن قوة ملاحظة وبعد نظر وتجريب لذا لم يكن من المستغرب أن يعتني الروس بهذه الدراسة التي تكشف عن بلادهم : أحوالها – طبائع سكانها – عاداتهم وتقاليدهم وبعض مراسم ملوكهم لأنه كتب عن الروس والبلغار والخزر .

وقد اعتنى **بابن فضلان** ورحلته " ريتشارد فراي " ، وصديقه " بلاك " بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٥٤م وكتبوا بعض التعليقات علىما أورده **ابن فضلان** في رسالته .

لكن روسيا بالطبع اعتنت عناية كبرى بهذه الرسالة لأنها تصف بلادهم وبلاد البلغار والأتراك كما اسلفنا وصفا دقيقا إذ اعتبرها الروس مرجعا أساسيا بالنسبة لهم عن هذه الفترة من حياتهم .

فقد لاحظ المستشرق الروسي " فراين " Fraehn " في عام ١٨٢٣م أهمية هذه الرحلة وتلك الرسالة على ما نقله

واستفاده من الجغرافي الكبير " ياقوت الحموي " في معجمه خاصة أخبار البلغار في نهر الفولجا و**الصقالبة** فنشر أي فراين حولها عدة دراسات .

كما اكتشف في روسيا عام ١٨١٧م مقطع من رسالة **ابن فضلان** نشرت بالألمانية من قبل أكاديمية " سان بترسبورج" عام ١٨٢٣م وتضمن هذا المقطع أجزاء معينة نشرها من قبل عام ١٨١٤ " رازموسين " ، وكانت هناك بعض الترجمات السويدية والفرنسية والانجليزية لكنها كانت بعيدة عن الدقة ، وفي عام ١٨٧٨م تم اكتشاف مخطوطتين جديدتين في المجموعة الأثرية التي تعود إلى السير " جون ايمرسون " السفير البريطاني في القسطنطينية وفي عام ١٩٣٤م اكتشف نص مكتوب بلاتينية العصور الوسطى في دير " كسيموس " قرب " تسالونيكا " شمال شرق اليونان .

تلك بعض الدراسات التي أجريت على رسالة **ابن فضلان** ومما لاشك فيه أنه كان شخصية على سعة من الاطلاع مثقفا يحب التجربة والأستماع لكي يستفد من الموقف العملي الذي وجد فيه (٥) .

ب – هدف الرحلة وأهميتها وظروف العصر :-

قال أحمد بن فضلان : لما وصل كتاب " ألمش بن يلطوار " ملك **الصقالبة** إلى أمير المؤمنين المقتدر ، يسأله فيه ابن يبعث إليه من يفقهه في الدين ، ويعرفه شرائع الإسلام ، ويبني له مسجدا ، وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته ، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له فأجيب إلى ما سأل من ذلك .

ويفهم من هذا النص أن هدف الرحلة كان دينيا سياسيا ويتضح الجانب السياسي في رغبة الملك بناء حص يتحصن فيه من الممخالفين عليه وفي نفس الوقت يمثل هذا العمل بعدا استراتيجيا للخلافة العباسية فالهدف السياسي هنا في صالح الطرفين .

ويبسط " **ابن فضلان** " أمر هؤلاء المخالفين على الملك الصقلبي فيقول : إنهم ملوك الخزر وهم من اليهود ، كانوا يعتدون على قومه ، ويفرضون عليهم الضرائب يؤدونها عن كل بيت في المملكة " جلد سمور " ، وابن ملك الخزر يخطب من يريد من بنات ملك **الصقالبة** ويتزوجها غصبا ، والخزري يهودي ، وابنة الصقلبي مسلمة ، وقد رأى " **ابن فضلان** " أن مملكة **الصقالبة** واسعة وأموالها خمسة وخراجها كثير ، فسأل

الملك عن استنجاده بخليفة المسلمين فأجاب بأنه يتبرك بأموال المسلمين ويعتز بدولتهم (٦) .

ولاشك أن أهمية الرحلة تكمن فيما تقدمه من معلومات ودراسات شتى سواء كان ذلك في توقفها في مدينة بخارى وخوارزم ، أم عند الغزيه ، أم عند البجناك ، أم في القبائل الباشغرد ، أم عند **الصقالبة** ، أم الروسية ، أم عند الخزر .

ولقد عالجت هذه الرحلة أحوال السكان في تلك البلاد ، كما ألقت الضوء على عاداتهم وتقاليدهم ونظم حياتهم ، سواء في زرعهم أم صيدهم وقنصهم ، أم حروبهم وسلمهم وغير ذلك ، كما إنه تكلم عن عادات ملك الخزر وكيفية اختيار خاقانهم ، وأيضا مراسم ملوكهم ، كما عالج أيضاً بالدراسة استقبال ملك **الصقالبة** للوفد ونظم حياة **الصقالبة** الاجتماعية ، وبعض عادات زواجهم وتجارتهم وعقائدهم (٧) .

أما حال العصر فكانت بغداد تعد أبهى مدن الكون وأغناهم حينذاك ، وكانت تمثل مركزا للنشاط التجاري والإشعاع الثقافي والاستقطاب الفكري ، فضلا عن جمالها وبهائها وأناقتها وحدائقها الغناء وبساتينها الخضراء ، فحقا كانت مدينة السلام – أي بغداد – أزهى المدن في عصرها ، وكان يقطنها آنئذ من السكان داخل أسوارها أكثر من مليون نسمة .

ولقد جسد " ابن مسكويه " (٨) حال العصر من خلال حديثه عن حال بغداد في عام ٣٠٥هـ أي قبل سفر الرحلة بأربعة أعوام فقط قائلا : لقد ورد في العام المذكور رسولان لملك الروم " الدولة البيزنطية " إلى مدينة السلام على طريق الفرات بهدايا عظيمة وألطاف كثيرة يلتمسان الهدية ، وكان دخولهما يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم ، فأنزلا دار صاعد ابن مخلد ، وتقدم أبو الحسن ابن الفرات بأن يفرش لهما ويعد فيه كل ما يحتاجان إليه من الآلات والأواني وجميع الأصناف ، وأن يقام لهما ولمن معهما الإنزال الواسعة والحيوان الكثير والحلاوة، حتى يتسع بذلك كل من معهما . والتمسا الوصول إلى المقتدر بالله ليبلغاه الرسالة التي معهما فأعلما أن ذلك متعذر صعب ، لا يجوز إلا بعد لقاء وزيره ومخاطبته فيما قصدا إليه ، وتقرير الأمر معه ، والرغبة إليه في تسهيل الأذن على الخليفة ، والمشورة عليه بالإجابة إلى ما التمسا . فسأل أبو عمر عدى ابن عبد الباقي الوارد معهما من الثغر أبا الحسن بن الفرات الإذن لهما في الوصول إليه ، فوعده بذلك في يوم ذكر له .

" وتقدم الوزير بأن يكون الجيش مصطفا في دار صاعد إلى الدار التي أقطعها بالمخزم ، وأن يكون غلمانه وجنده وخلفاء الحجاب المرسومين بداره منتظمين من باب الدار إلى موضع مجلسه ، وبسط له في مجلس عظيم مذهب السقوف في دارمنها يعرف بدار البستان ، بالفرش الفاخر العجيب ، وعلقت

الستور التي تشبه الفرش ، واستزاد في الفرش والبسط والستور، ما بلغ ثمن ثلاثين ألف دينار ولم يبق شئ تجمل به الدار ، ويفخم به الأمر ، وإلا فعل . وجعل على مصلى عظيم من ورائه مسند عال ، والخدم بين يديه ، وخلفه ، وعن يمينه ، وشماله ، والقواد والأولياء قد ملأوا الصحن . ودخل إليه الرسولان فشاهدا في طريقهما من الجيش وكثرة الجمع ما هالهما " .

وتابع " مسكويه " وصفه المفصل البديع ، فرسم الرواق والرجال قد امتلأت بهم الدار ، وصحن البستان ، والمجلس الذي جلس فيه الوزير ، وذكر أن معهما المترجم يصف لهما ويشرح وأنهما جاءا في طلب الفداء فوعدهما الوزير ، والتمس لهما مقابلة يوصلهما فيها إلى الخليفة ، فلما كان اليوم المرسوم اصطف الجند من دار صاعد إلى دار السلطان فوقفوا في الزي الحسن والسلاح التام " وتقدم بأن تشحن رحاب الدار والدهاليز والممرات بالرجال والسلاح " ووصف مسكويه كيف أخذ الرجلان من ممر يفضي إلى صحن ، ومنه إلى ممر فصحن ، يخرقان الصحون والممرات حتى كلا من المشي وانبهرا ، لكثرة الرجال والسلاح ، ثم أدخلا على الخليفة المقتدر.

وكان المقتدر جالسا على سرير ملكه ، وحوله الأولياء وقوف على مراتبهم فلما دخلا قبلا الأرض ووقفا حيث استوقفهما الحاجب ، فأديا الرسالة ، فأجابهما عنه الوزير

وانتهت المقابلة . فلما خرجا من حضرته خلع عليهما مطارف خز وعمائم خز . وأطلق على القواد الشاخصين من بيت المال مائة ألف وسبعون ألف دينار . وحمل إلى كل واحد من الرسولين عشرون ألف درهم صلة لهما ، وخرجا مع المترجم من حدود البلاد ، وتم الفداء .

ولعل هذا النص يكشف تماما مدى أبهة الخلافة العباسية ومدى ثرائها وقوتها حتى اصبح يخطب ودها القاصي والداني وعلى ذلك طلب ملك **الصقالبة** والتي تقبع بلاده على نهر إتل(*) " الفولجا " بأن يرسل إليه الخليفة وفدا يحقق له ما أسلفنا ذكره .

---

* **نهر إتل** : بكسر أوله وثانيه اسم نهر عظيم شبيه بدجلة في بلاد الخزر ويمر ببلاد الروس وبلغار وقيل إتل قصبة بلاد الخزر والنهر فسمى بها .

ياقوت ١١١/١ .

جـ – وفد الرحلة وبعض البلدان التي مر بها قبيل وصوله بلاد الصقالبة :

بناءا على طلب ملك **الصقالبة** " المش بن يلطوار " (*) أعد الخليفة العباسي " المقتدر بالله " وفدا تكون من : " سوسن الرسي " مولى نذير الخرمي رئيسا ، وعضوية : " بارس الصقلابي و" تكين " التركي ، و" أحمد بن فضلان " ، وكان برفقتهم " عبد الله بن باشتو الخزري " رسول ملك **الصقالبة** كدليل .

وبنظرة على أفراد الوفد نجد أنهم تمتعوا بمزيج من اللغات لكي يواكب ذلك اختلاف نمط اللسان في البلاد المارين بها ؛ فسوسن الرسي وبارس الصقلابي كانا على دراية باللغة الروسية ، بينما كان تكين التركي يعرف التركية ، وأخيرا كان أحمد بن فضلان يعرف العربية ، وبالطبع رافق الوفد عبد الله ابن باشتو الخزري رسول ملك **الصقالبة** كدليل لهم .

وقد جهز الوفد بمعرفة الوزير حامد بن العباس ، وسيمُول ماليا من خراج ضيعة " لابن الفرات " الوزير السابق

---

* **المش بن يلطوار** : ذكره " ياقوت الحموي " **المس بن شلكى بلطوار** وقد أثبتنا ما جاء في الرسالة . ياقوت ١/٤٨٦ .

تدعى **أرثخشمثين** (*) ، وحمل بالهدايا ، وبعض الأدوية التي كان ملك **الصقالبة** قد طلبها من نذير الخرمي ، وكان برفقة الوفد فقيه ومعلم ، وغلمان ، ولعلهم كانوا بمثابة ملحقين معاونين كما نسميهم بلغة دبلوماسية اليوم ، ولاشك أن إرسال الدواء مع الوفد لدلالة على مدى الرقي الذي حازته بغداد حاضرة الخلافة العباسية (٩) .

قال **ابن فضلان** : " فرحلنا من مدينة السلام يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمائة فأقمنا بالنهروان يوما واحدا ، ورحلنا مجدين حتى وافينا الدسكره ، فأقمنا بها ثلاثة أيام ثم رحلنا قاصدين لا نلوي على شئ حتى صرنا إلى حلوان فأقمنا بها يومين (١٠) .

---

* **ارثخشمثين** : بالفتح ثم السكون ، وثاء مثلثة مفتوحة ، وخاء معجمة مضمومة ، وشين ساكنة معجمة ، وميم مكسورة ، وثاء مثلثة مفتوحة ، ونون ، وربما اسقطت الهمزة من أوله : مدينة كبيرة ذات أسواق عامرة ونعمة وافرة ، وهي من أعمال خوارزم من أعاليها ، بينها وبين الجرجانية ، مدينة خوارزم ثلاثة أيام .

ياقوت الحموي ت ٦٢٦هـ

معجم البلدان : تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٧٠/١ .

وهكذا كانت بداية الرحلة في يوم الخميس الحادي عشر من صفر عام ٣٠٩هـ الموافق الحادي والعشرون من يونيو عام ٩٢١م ، من مدينة السلام متجهة إلى بلاد **الصقالبة** ، فمرت ببلاد : النهروان والدسكرة (*) ، وحلوان ثم قرميسين وهمذان ، بعد ذلك ساوة والري ، وخوار (*) الري ، وسمنان(*) والدامغان ونيسابور ، وسرخس ، ومرو ، وقشمهان وهي طرف مفازة آمل ، ثم نهر جيحون (١١) . وبذلك عبرت الرحلة بعض البلاد الفارسية لتدخل إلى أرض بخارى من بلاد ما وراء النهر .

هذا عن البلدان التي مر بها **ابن فضلان** في إقليم فارس.

---

* **الدسكرة** : بفتح أوله وسكون ثانيه ، وفتح كافه ، قرية كبيرة ذات منبر بنواحي نهر الملك من غربي بغداد .

ياقوت الحموي ، جـ٢ ، ص٥١٨ .

* **خوار** : بضم أوله ، وأخره راء : مدينة كبيرة من أعمال الري بينها وبين سمنان للقاص إلى خراسان على رأس الطريق تجوز القوافل وسطها ، بينها وبين الري نحو عشرين فرسخا .

ياقوت : ٤٥١/٢ .

* **سمنان** : بكسر أوله ، وتكرير النون أيضاً ، وهي البلدة التي بين الري ودامغان ، وبعضهم يجعلها من قومس .

ياقوت : ٢٨٥/٣ .

ينتقل بعد ذلك " **ابن فضلان** " إلى بخارى ويواصل حديثه قائلا : " ثم رحلنا إلى بيكند ، ثم دخلنا بخارا ، وصرنا إلى الجيهاني ، وهو كاتب أمير خراسان ، ويدعى بخراسان الشيخ العميد فتقدم بأخذ دار لنا ، وأقام لنا رجلا يقضي حوائجنا ويزيح عللنا ... ثم استأذن لنا على نصر بن أحمد فدخلنا إليه وهو غلام أمرد ، فسلمنا عليه بالإمرة ، وأمرنا بالجلوس فكان أول ما بدأنا به أن قال " كيف خلفتم مولاي أمير المؤمنين ؟ أطال الله بقائه وسلامته في نفسه وفتيانه وأوليائه – فقلنا : بخير قال : فزاده الله خيرا " .

ثم قرئ الكتاب عليه بتسلم " أرثخشمثين " من الفضل بن موسى النصراني وكيل ابن الفرات وتسليمها إلى أحمد بن موسى الخوارزمي ، وإنفاذنا والكتاب إلى صاحبه بخوارزم بترك العرض لنا ، والكتاب بباب الترك ببذرقتنا [*] وترك العرض لنا[١٢] .

ولقد توقفا قليلا أمام " بخارى " لاسيما عند أميرها حيث

---

* **البذرقة** : اتخاذ الدليل أو الحراس كما أوردها " دوزي " فيتكملة معاجم العرب ٦٠/١ وهنا يعني أن تحرس البعثة بجنود يحمونها وهي بالإفرنجية Escorte ، وبذرقة بالذال المعجمة والمهملة مركبة من بد ، وراء والمعنى الطريق الردئ فارسية معربة. هامش ٤ ص٧٧ من رسالة **ابن فضلان** .

قرئ عليه الكتاب بتسلم " أرتخشمثين " وحتى من ضياع الفضل ابن موسى وكيل ابن الفرات ، لكي ينفق من خراجه على رحلته ويرسل الأموال لملك **الصقالبة** .

يواصل **ابن فضلان** بعد ذلك حديثه فيذكر تنقله بين البلدان بعد بقائه ببخارى ثمانية وعشرون يوما رأى فيها ألوانا شتى من الدراهم يذكر قدومه خوارزم ولقائه بأميرها ثم وصوله إلى الجرجانية والتي بينها وبين خوارزم في الماء خمسون فرسخا ويقول أنه رأى دراهم خوارزمية مزيفة كما لاحظ تغير المناخ الذي برد حتى جمد نهر جيحون من أوله إلى آخره وكان سمك جمده سبعة عشر شبرا (١٣) .

ولاشك أن تلك الكلمات تدل على مدى دقة ملاحظة **ابن فضلان** حين ميز بين الدارهم المزيفة والصحيحة ، كما وصف شدة البرد دلالة على تأثره به ودلالة على ملاحظته جو المنطقة فيقول :

رأينا بلدا ما ظننا إلا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه ولا يسقط الثلج فيه إلا ومعه ريح عاصف (١٤) .

ويصور **ابن فضلان** البرد الشديد حتى يقول : إن السائل لا يقف على الباب بل يدخل إلى الدار فيمكث أمام النار ساعة ثم يقول بعد ذلك " بكند " أي الخبز فإن أعطي شيئا أخذ وإلا خرج(١٥) .

ويزيد **ابن فضلان** في وصفه لبرودة الجو فيقول : ولقد رأيت الشوارع والأسواق لشدة البرد تخلو من الناس حتى يطوف الإنسان بأكثرها فلا يجد أحدا ولا يستقبله إنسان ، ولقد كنت أخرج من الحمام فأذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها من النار [١٦] .

وهكذا صور لنا **ابن فضلان** تأثير البرد علىمستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة فكان تأثره معبرا عن مستوى الفرد، وخلو السوق من المتعاملين فيه دليلا على المستوى الجماعي ، حيث الشوارع الخالية من المارة والأسواق الخالية أيضاً من التعامل .

ويلاحظ **ابن فضلان** تغير المناخ فيقول : لما انتصف شوال من سنة تسع وثلاثمائة أخذ الزمان في التغير ، وانحل جيحون ، وأخذنا نحن فيما نحتاج إليه من آله السفر واشترينا الجمال التركية واستعملنا الصفر (المراكب) من جلود الجمال لعبور الأنهار التي تحتاج أن نعبرها في بلد الترك ، وتزودنا بالخبز والجاورس [*] ، والنمكسوذ [*] لثلاثة أشهر [١٧] .

---

* **الجاورس** : حب معروف يؤكل مثل الدهن وهو ثلاثة أصناف أجودها الأصفر وهو يشبه الأرز . هامش ٤ ص٨٦ من رسالة **ابن فضلان** .
* **النمكسوذ** : بفتح النون والميم وسكون الكاف ، لحم مجفف من غير تقديد هامش ٤ ص٨٦ من رسالة **ابن فضلان** .

وقبل توجهه إلى بلاد الترك يقول (**ابن فضلان**) إن كل من كنا نمر به يأمرنا أن نستكثر من الثياب حتى كان كل رجل منا عليه قرطق (*) (قميص أو معطف يصل إلى منتصف الجسم) ، وفوقه خفتان (قفطان أو جاكت أو صدرية تحت الثياب) وفوقه يوستين ومن فوقه لبادة وبرنس (*) لا تظهر منه إلا عيوننا ، وسراويل طاق وآخر مبطن ، وخف كيمخت (*) ، وفوق الخف خف آخر حتى كان الواحد منا إذا ركب الجمل لم يقدر أن يتحرك لما عليه من الثياب (١٨) .

وهنا يوضح **ابن فضلان** شدة البرد وأثاره في جمع الملابس حتى أصبح الإنسان لا يستطيع أن يتحرك فوق جمل يركبه من كثرة ما ارتداه من ثياب .

وقبل دخوله أرض الترك يقول **ابن فضلان** لقد تأخر عنا، الفقيه والمعلم والغلمان الذين خرجوا معنا من مدينة السلام

---

* **قرطق** : قميص أو معطف قصير يصل إلى منتصف الجسم .

هامش ٦ ص٨٦ من رسالة **ابن فضلان** .

* **برنس** : معطف طويل له قلنسوة تلتصق به وتغطي الرأس .

هامش ٣ ص٨٧ من رسالة **ابن فضلان** .

* **كيمخت** : نوع من الجلد ربما من جلد الخيل .

هامش ٧ ص٨٧ من رسالة **ابن فضلان** .

فزعا من الدخول إلى ذلك البلد لشدة برده وكنت أنا و" سوسن الرسى " و" الرسول " وسلف له و" **الغلامان** " " تكين " و"بارس" ويتأهب **ابن فضلان** لمغادرة الجورجانية فيقول : واستدف أمر القافلة وأكترينا دليلا يقال له قلواس من أهل الجورجانية ، ثم رحلنا من الجورمانية يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة ، فنزلنا رباطا يقال له زمجان وهو بباب الترك ، ثم وصلنا منزلا يقال له جيت . ويصف شدة البرد في بلاد الترك بأن برد خوارزم السالف الذكر كان بمثابة الصيف بالنسبة له [١٩] .

المهم أن الرحلة وصلت إلى قبيلة من الأتراك يقال لها الغزية وهم بادية لهم بيوت شعر يحلون فيها ويرتحلون ، ويتعرض **ابن فضلان** للحالة الدينية عندهم ويصفهم بأنهم لا يعبدون شيئا ، ويسمون كبراءهم أربابا ، فإذا استشار أحدهم رئيسه في شئ قال له يا رب أيش أعمل في كذا وكذا ، وإذا تعرض أحدهم لظلم أو جرى عليه ما يكرهه ، رفع رأسه إلى السماء وقال : " **بير تنكرى** " بمعنى (الله الواحد) لأن بير بالتركية تعني (واحد) ، وتنكري تعني (الله) . وبعد الحالة الدينية يتكلم **ابن فضلان** عن رسوم تزويجهم وهو خطبة الفرد من الآخر بعض حرمه مثل ابنته أو أخته أو بعض من يملك أمرهم ، على كذا وكذا ثوب خوارزمي فإن وافقه حملت إليه ، وربما كان المهر جمالا [٢٠] .

ويذكر **ابن فضلان** عن بعض العادات والتقاليد في الزواج عند الترك قائلا إذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوج الأكبرمن ولده بامرأته إذا لم تكن أمه .

بعد ذلك يتكلم عن ملك الغزية من الترك فيذكر أنه يقال له (**يبغو**) وهو اسم الأمير وكل من ملك هذه القبيلة سمي بهذا الاسم ويقال لخليفته (**كوذركين**) وقد إلتقى **ابن فضلان** بهذا الملك فضرب له قبابا تركية وأنزله وصحبه فيها وأرسل إلينا غنما ودوابا لنذبح منها ونركب الآخر ودع جماعة من أهل بيته وبني عمه فقدم لهم غنما كثيرا ، ومن جانبنا قدمنا له هدية من ثياب وزبيب وجوز وفلفل وجاورس [٢١] .

وعن لقائه بأمير الغزية أو ملكها يقول **ابن فضلان** فلما كان الليل دخلت عليه أنا والترجمان وهو في قبته جالس ومعنا كتاب نذير الخرمي إليه يأمره فيه بالإسلام ويحضه عليه ووجه إليه خمسين دينارا وقرأ الكتاب عليه فقال للترجمان لست أقول لكم شيئا حتى ترجعوا . أي أنه ينتظر عودتهم من عند **الصقالبة** ثم يعرض له ما يريد ويكتب إلى الخليفة بماهو عازم عليه وعندئذ أرسل الملك لبعض نوابه وهم طرخان وينال وابن أخيهما وإليغز وقال له إن هؤلاء رسل ملك العرب إلى صهري " ألمس بن شلكى بن بلطوار " ولم يخير لى أن أطلقهم إلا عن

مشورتكم فقال طرخان هذا شئ ما رأيناه قط ولا سمعنا به ولا اجتاز بنا رسول سلطان مذ كنا نحن وآباؤنا (٢٢) .

دلالة على أن رحلة **ابن فضلان هي** الأولى من نوعها التي تمر بأرضهم واعتبروا أن هذا الأمر بمثابة حيلة يحتالها الخليفة لكي يستجيش الخزر عليهم وهم أعداؤهم .

ويواصل الوفد طريقه ويصل إلى نهر يغندي فأخرج الناس سفرهم (مراكبهم) فعبرنا النهر ثم نهر آخر يقال له جام ثم عبرنا نهر جاخش (سجير Sagir) ، ثم صرنا إلى البجناك فلفت نظر الوفد لونهم الشديد السمرة ثم عبر الوفد نهز (جيخ) وهو نهر كبير دل على ذلك انقلاب " سفره " وغرق من كان بها ثم سرنا أياما وعبرنا نهر (جاخا) ثم نهر(ارخز) ثم (باجاغ) ثم اسمور ، ثم (كنال) ثم (سوخ) ثم نهر (كخلو) ، ثم توقف الوفد في بلد يقال لها (الباشغرد) ، وهم أشر الأتراك وأشدهم إقداما على القتل وهم يشركون ولهم أرباب متعددة منها ما هو للشتاء وللصيف وللمطر وللريح وللشجر وللناس وللدواب وللماء ولليل وللنهار وللموت وللأرض ، والرب الذي في السماء هو أكبرهم ورأي الوفد هناك طائفة تعبد الحيات وأخرى تعبد الكراكي (٢٣) .

وبعد الوقوف على الحالة الدينية عند الباشغرد يقول **ابن فضلان** عبرنا نهر (جرمشان) ثم نهر (أورن) ثم نهر (أورم)

ثم (بايناخ) ونهر (تيغ) ثم نهر (نياسنه) ثم نهر (جاوشيز) وما بين النهر والآخر من السالف ذكرهم اليومان والثلاثة وبذلك تأهب الوفد لدخول بلاد **الصقالبة** مقصد بحثنا .

وهكذا رأينا كم قاسى **ابن فضلان** الكثير والكثير في طريق وصوله إلى بلاد **الصقالبة** ، وكم كان بارعا في تصويره بدقة لما كان يراه ويقف عليه ويسأل عنه لاسيما في العادات والتقاليد ونظم الحياة ورسوم الحكام وأحوال الطقس وغيرها ، ثم ننتقل إلى الكلام عن الملامح الحضارية للصقالبة .

الفصل الثـاني :

الملامـح الحضاريــة للصقالبــة

هنـاك عدة ملامـح حضاريـة للصقالبـة نذكـر منهـا :

أ- من رسوم الصقالبــة :

كـان يـوم الأحـد الثـاني عشـر مـن المحـرم عـام ٣١٠هـ الموافق الثـاني عشـر مـن مـايو عـام ٩٢٢م موعـدا لوصـول وفـد **ابـن فضـلان** إلـى بـلاد **الصقالبـة** ومـا أن وصـل الوفـد حتـى عومـل معاملـة طيبـة يقـول **ابـن فضـلان** : " فلمـا كنـا مـن ملـك **الصقالبـة** وهـو الـذي قصدنـا لـه علىمسـيرة يـوم وليلـة ، وجـه لاسـتقبالنا الملـوك الأربعـة الذيـن تحـت يـده وإخوتـه وأولاده ، فاسـتقبلونا ومعهـم الخبـز واللحـم والجـاورس وسـاروا معنـا " .

وهكـذا رأينـا الوفـد يستقبل وهوعلـى مسـيرة يـوم وليلـة مـن قصـر الملـك " ألمـش بـن يلطـوار " وكـان فـي استقباله امـراء أربعـة بمثابـة نـواب الملـك وأخوتـه وأولاده ، معهـم الخـبز واللحـم والجـاورس وصـاروا يواكبـون الوفـد .

ويواصـل **ابـن فضـلان** كلامـه علـى اسـتقبال الوفـد ويقـول **"فلمـا صرنـا منـه علـى فرسـخين تلقانـا هـو بنفسـه فلمـا رآنـا نـزل فخـر سـاجدا شـكر للـه جـل وعـز وكـان فـي كمـه دراهـم فنثرهـا علينـا ونصب لنـا القبـاب فنزلناهـا "** .

وهنا يوضح لنا **ابن فضلان** توجه الملك بنفسه للقاء الوفد مع أنه كان ذا بدانة واضحة فخر لله ساجدا بمجرد أن رأى الوفد وكان بكمه عدد من الدراهم ولا ندري أهي من ضربهم أم من ضرب غيرهم .

ويواصل حديثه **ابن فضلان** ويقول : بقينا " **يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء في القباب التي ضربت لنا حتى جمع الملوك والقواد وأهل بلده ليسمعوا قراءة الكتاب فلما كان يوم الخميس واجتمعوا نشرنا " المطردين " اللذين كانا معنا وأسرجنا الدابة بالسرج الموجه إليه والبسناه السواد وعممناه وأخرجت كتاب الخليفة وقلت له لا يجوز أن نجلس والكتاب يقرأ فقام على قدميه هو ومن حضر من وجوه أهل مملكته وهو رجل بدين بطين جدا** " (٢٤) .

ويتضح من رسوم **الصقالبة** أن الوفد بقي أربعة أيام في القباب التي ضربت له ثم انتقل للقاء الملك وقراءة الكتاب وإن كان هذا من رسوم **الصقالبة** فإن هذا الموقف يحمل لمحة حضارية ؛ إذ أن الملك قبل أن يرتدي السواد وهو لباس العباسيين كما أن قراءة الكتاب وقف مع بدانته ليسمعها هو ومن حضر من وجوه أهل مملكته وتلك لمحة حضارية .

ومن الملامح الضحارية أيضاً في هذا اللقاء أن الملك حينما سمع كلمة " سلام عليك " في صدر الكتاب قال **ابن**

فضلان له: رد السلام على أمير المؤمنين فرد الملك وردوا جميعا أي أهله وبعد نهاية قراءة الكتاب كبروا تكبيرة ارتجت لها الأرض ولاشك أنها لمحة حضارية .

وعندما قرئ كتاب الوزير " حامد بن العباس " سمعه الملك أيضاً وهو وقوف فأمرته بالجلوس فجلس وذلك عند قراءة كتاب " نذير الخرمي " وما أن انتهت مراسم تلاوة الكتب حتى نثرت الدراهم واخرجت الهدايا لكي تقدم له .

ويقول ابن فضلان : " **ثم أخرجت الهدايا من الطيب والثياب واللؤلؤ له ولإمراته فلم أزل اعرضه عليه وعليها شيئا شيئا حتى فرغنا من ذلك ثم خلعت على امراته بحضرة الناس وكانت جالسة إلى جنبه وهذه سنتهم وزيهم ، فلما خلعت عليها نثر النساء عليها الدراهم وانصرفنا** " (٢٥) .

أي أن من سنتهم ورسومهم أن تجلس زوجة الملك إلى جواره وذلك لم يختلف كثيرا عن عصرنا الحالي .

نظام المائدة :

ومن رسومهم أيضاً مائدة الطعام حيث يفتتح الملك المائدة بأخذ سكينة ، ويقطع بها لقمة ويتلوها بثانية وثالثة ، ثم يقدم إلى الحضور قطعة قطعة ، وكل من يتناول قطعة تأتيه

مائدة خاصة به ، فكل يأكل بمفرده وما تبقى على مائدته أخذه معه .

يقول ابن فضلان : " **فلما كنا بعد ساعة وجه إلينا فدلخنا إليه وهو في قبته والملوك عن يمينه وأمرنا أن نجلس على يساره وإذا أولاده جلوس بين يديه وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومي ، فدعا بالمائدة فقدمت وعليها اللحم المشوي وحده فابتدأ هو فأخذ سكينا وقطع لقمة وأكلها وثانية وثالثة ، ثم احتز قطعة دفعها إلى [سوسن] الرسول فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فحملت بين يديه وكذلك الرسم لا يمد أحد يده إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة فساعة يتناولها قد جاءته مائدة ثم ناولني فجاءتني المائدة ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة ثم ناول الملك الرابع فجاءته مائدة ثم ناول أولاده فجاءتهم الموائد ، وأكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئا فإذا فرغ من الطعام حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته إلى منزله** " [٢٦] .

وإن كان ذلك من رسمهم كما جاء في النص فإنه أعطى لنا ملمحا حضاريا أيضاً ؛ إذا أمر الملك الوفد أن يجلس إلى جواره عن يساره ونوابه أو أمراءه عن يمينه وأولاده بين يديه

وسريره مغشى بالديباج الرومي وكان هذا الديباج مشهورا في القرن الرابع الهجري مما يدل على أنه أخذ بما هو مشهور في عصره في فرنسا كماقال " متز " في الحضارة الإسلامية ، الجزء الثاني ، ص٣٠١ ، وكون الملك يقدم قطعة من اللحم المشوي إلى سوسن الرثي يدل على عنايته برئيس البعثة من الناحية السياسية وقد قدمه على الحضور من أهله وذويه وأمراء مملكته .

وكان من رسومهم أيضاً أنه بعد أن تناولنا الطعام دعا لنا بشراب العسل وهم يسمونه " السجو " ليومه وليلته فشرب قدحا ثم قام قائما فقال :

" هذا سروري بمولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وقام الملوك الأربعة وأولاده لقيامه وقمنا نحن أيضاً حتى إذا فعل ذلك ثلاث مرات ثم انصرفنا من عنده " .

تلك هي رسومهم في استقبال الوفد ، وفي تناول الطعام والشراب ، وفي استماع الكتاب .

ومن رسومهم أيضاً أن الملك إذا ركب وحده ويجتاز الأسواق دليل على ارتباطه برعيته ارتباطا قويا فهم يحترمونهم وهو لا يعتدي على حرياتهم الفردية .

ويقول ابن فضلان : " **وكلهم يلبسون القلانس (*) فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ولا أحد يكون معه فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم إلى رؤوسهم وكذلك كل من يدخل إلى الملك من صغير وكبير حتى أولاده وأخوته ساعة ينظرون إليه قد أخذوا قلانسهم فجعلوها تحت آباطهم ثم أوموا إليه برؤوسهم وجلسوا ثم قاموا حتى يأمرهم بالجلوس وكل من يجلس بين يديه فإنما يجلس باركا ولا يخرج قلنسوته ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك** " (٢٧) .

دلالة على تواصل الملك مع الرعية فهو يمشي دون حراسة ويتعامل مع شعبه كأنه قريب منهم إذ إنه يسوي بين أولاده وأخوته ورعيته في موضوع خلع قلانسهم .

ومن رسومهم أيضاً أنه إذا ولد لابن الرجل مولود أخذه جده دون أبيه وقال : " **أنا أحق به من أبيه في حضنه حتى**

---

* **القلانس** : جمع قلنسوة وهو لباس الرأس وهو بفتح القاف واللام وكسر النون ، يعمل بالقصب والورق وقد ألزم الخليفة العباسي المنصور الرعية بلباسها عام ١٥٣هـ .

د. محمد عماره :

قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية ، دار الشروق – الطبعة الأولى – ١٩٩٣م ص٤٦٥ .

يصير رجلا وإذا مات منهم الرجل ورثه أخوه دون ولده فعرفت الملك أن هذا غير جائز وعرفته كيف المواريث حتى فهمها " .

وهذا من الملامح الحضارية إذ أن الملك استجاب لمشورة أو لحوار **ابن فضلان** في جانب الشريعة بمعنى أنه على استعداد لتقبل الرأي الآخر مما يكشف عن تميز حضاري وقبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى من المظاهر الحضارية ، نختتم تلك النقطة بملمح حضاري قد يرتبط بالجانب السياسي .

يقول **ابن فضلان** : " **وقد كان يخطب له على منبره قبل قدومي اللهم واصلح الملك " بلطوار ملك بلغار " فقلت أنا له أن الله هو الملك ولا يسمى على المنبر بهذا الاسم غيره جل وعز وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضى لنفسه أن يقال على منابره في الشرق والغرب اللهم اصلح عبدك وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين وكذا من كان قبله من آبائه الخلفاء وقد قال النبي ﷺ ، لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أن عبد فقولوا عبد الله ورسوله " .**

وهو حوار يدل على مستوى حضاري إذ أن الملك سيسمع كلام **ابن فضلان** وسوف يغير الدعاء كما يعرفه **ابن فضلان** إياه ويوضح ذلك **ابن فضلان** فيقول : " **فقال لي فكيف يجوز أن يخطب لي قلت باسمك واسم أبيك قال إن أبى كان كافر ولا أحب أن أذكر اسمه على المنبر وأنا أيضاً فما أحب أن**

يذكر اسمي إذ كان الذي سماني به كافر ، ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين فقلت : جعفر ، قال : فيجوز أن اتسمى باسمه قلت : نعم ، قال : قد جعلت اسمى جعفرا و اسم أبي عبد الله فتقدم إلى الخطيب بذلك ففعلت فكان يخطب له اللهم وأصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين " (٢٨)

ولاشك أن هذا النص يعطي لنا ملمحا حضاريا فالملك يغير اسمه حين علم أن ذلك يتمشى مع الدين بعد نصيحة **ابن فضلان** له فكونه يسمع إلى الرأي الآخر الذي نقله له **ابن فضلان** حيث تقضي نظم الإسلام فإنه استجاب له فقبوله يعد مسلكا حضاريا .

من الملامح الاقتصادية للصقالبة :

أولا : الزراعة :

يذكر **ابن فضلان** قائلا " ونزلنا مع الملك منزلا فدخلت أنا وأصحابي تكين وسوسن وبارس ومعنا رجل من أصحاب الملك بين الشجر فرأينا عودا صغيرا آخضر كرقه المغزل وأطول ، فيه عرق أخضر على رأس العرق ورقة عريضة مبسوطة على الأرض مفروش عليها مثل النابت فيها حب لا يشك من يأكله أنه رمان أمليسي (*) فأكلنا منه فإذا به من اللذة أمر عظيم فمازلنا نتبعه ونأكله " (٢٩) .

وبعد حديثه عن الرمان يتحدث **ابن فضلان** عن التفاح قائلا " **ورأيت لهم تفاحا أخضر شديد الخضرة وأشد حموضة من خل الخمر ، تأكله الجواري فيسمن عليه ، ولم أر في بلدهم أكثر من شجر البندق ، لقد رأيت منه غياضا تكون الغيضة أربعين فرسخا في مثلها ، ورأيت لهم شجرا لا أدري ما هو مفرط الطول وساقه أجرد ورؤوسه كرؤوس النخل له خوص دقاق إلا أنه مجتمع يجنون إلى موضع يعرفونه من**

---

* الرمان : الرمان بضم الراء المشددة وفتح الميم المشددة الممدودة ، ثمر الفاكلهة المعروف وفي القرآن الكريم " والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه " الأنعام : ٩٩ .

د. محمد عمارة : المرجع السابق ص٢٥٨ .

ساقه فيثقبونه ويجعلون تحته إناء فتجري إليه من ذلك الثقب ماء أطيب من العسل إن أكثر الإنسان منه أسكره كما يسكر الخمر " (٣٠) .

وهكذا ألمح ' **ابن فضلان** ' وأيده ياقوت الحموي إلى وجود الرمان والتفاح والشجر الذي يعطي سائلا أطيب من العسل وإن لم يذكر ياقوت الرمان ، كذلك أوضح **ابن فضلان** أن " أكلهم الجاورس ولحم الدابة على أن الحنطة والشعير كثيرة وكل من زرع شيئا أخذه لنفسه ليس للملك فيه حقِ غير أنه يؤدون إليه في كل سنة من كل بيت جلد سمور (*) " (٣١) .

ويضيف " ابن رستة " في الزراعة قائلا : " **وهم قوم لهم زرع وحراثه يزرعون كل الحبوب من الحنطة والشعير والدخن وغير ذلك** " (٣٢) .

ثانيا : الصناعة :

يذكر " ابن رستة " أن **لهم مثل الحباب من خشب معمول فيها كور لنحلهم وعسلهم ويسمونها " أليشج " يخرج من الحب الواحد مقدار عشرة أباريق** " (٣٣) .

---

* السمور : حيوان بري يشبه السنور يتخذ من جلده فراء ثمينة للينها وخفتها وادفائها وحسنها .

ويقول ابن فضلان " ولقد رأيت ثلاث طيفورات (*) كبار تشبه الجذع اليماني عرفنا أنها معمولة من أصل قرن هذا الحيوان وذكر بعض أهل البلد أن الكركدن " (٣٤) .

ويقول ابن فضلان أيضاً " ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد – قد وقع إلى تلك الناحية – قبتي لنتحدث فتحدثنا بمقدار ما يقرأ إنسان أقل من نصف سبع ونحن ننتظر آذان العتمة " العشاء " " (٣٥) .

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية قول " بارتلد W. Barthold " : " ولم يكن التجار وحدهم هم الذين يزورون بلاد البغار وقتذاك وإنما كان يزورها كذلك الصناع من الأقطار الأسيوية المجاورة ، وكان في بلاط الملك خياط بغدادي استقى منه ابن فضلان بعض معلوماته عن المملكة وشعبها " .

ويبدو أن دخول ابن فضلان في النص السابق مع الخياط إلى قبته هذا ما بني عليه " بارتلد " في اطلاع هذا الخياط لابن فضلان على بعض المعلومات .

يواصل بارتلد كلامه ويقول : يظهر أن البلغار لم يمارسوا من جانبهم نوعا من الصناعات لكن اشتهرت بعد ذلك

* الطيفوره : صحن أو طبق عميق .

الجلود البغارية وهي الجلود الروسية الحديثة التي تعرف في اللغة الروسية الحديثة باسم " يوفت " Juft ، وهي كلمة مستعارة من اللغة البلغارية ، كما اشتهرت الأحذية البلغارية المصنوعة من تلك الجلود وهي الأحذية المعروفة في اللغة الفارسية " بموزه بلغاري " [٣٦] .

ثالثا : التجارة :

يقول ابن فضلان " **إن قبة الملك كبيرة جدا تسع ألف نفس وأكثر مفروشة بالفرش الأرمني وله في وسطها سرير مغطى بالديباج الرومي** " .

ويفهم من هذا أن الفرش الأرمني والديباج الرومي قد أتى إلى تلك المنطقة عن طريق التجارة من بلاد أوروبا إذن نستفيد من هذا النص أن **للصقالبة** تجارة مع بعض بلدان أوروبا.

ويضيف " **ابن فضلان** " قائلا " **ولقد حدثني ترجمان الملك أن سنديا سقط إلى ذلك البلد فأقام عند الملك برهة من الزمان يخدمه وكان خفيفا فهما فأراد جماعة منهم الخروج في تجارة لهم فاستأذن السندي الملك في الخروج معهم فنهاه عن ذلك وألح عليه حتى أذن له فخرج معهم في سفينة فرأوه حركا كيسا فتأمروا بينهم وقالوا هذا يصلح لخدمة ربنا فتوجه به**

إليه ، واجتازوا في طريقهم بغيضة فأخرجوه إليها وجعلوا في عنقه حبلا وشدوه في رأس شجرة عالية وتركوه ومضوا "[٣٧].

ويفهم من هذا أن لهم تجارة مع بعض البلدان لاسيما وأن السندي كان يعمل في هذا المجال وكان من عاداتهم إذا رأوا إنسانا له حركة ومعرفة بالأشياء قالوا هذاحقه أن يخدم ربنا فأخذوه وجلعوا في عنقه حبلا وعلقوه في شجرة حتى يتقطع .

ويشير " ابن رستة " إلى أن **الصقالبة** كانت لهم تجارة مع الروس وكذلك الخزر [٣٨].

ويشير **ابن فضلان** " إلى أن غياضهم كان بها عسل كثير في مساكن النحل يعرفونها فيخرجون لطلبها فربما وقع عليهم قوم من أعدائهم فقتلوهم وفيهم تجار كثير يخرجون إلى أرض الترك فيجلبون الغنم وإلى بلد يقال لها " ويسو [*] " فيجلبون السمور والثعلب الأسود " [٣٩].

ويلمح **ابن فضلان** سوقا على نهر " اتل " فيقول " **لما وافينا الملك وجدناه نازلا على ماء يقال له خلجه وهي ثلاث**

---

[*] ويسو : بكسر أوله والسن مهملة وواو : بلاد وراء بلغار بينها وبين بلغار ثلاثة أشهر يقصر عندهم الليل حتى لا يرون الظلمة ثم يطول في فصل آخر حتى لا يرون الضوء .

ياقوت الحموى : معجم البلدان – مادة ويسو ص٤٤٥ .

بحيرات منها اثنتان كبيرتان واحدة صغيرة إلا أنه ليس فيجميعها شئ يلحق غوره ، وبين هذا الموضع وبين نهر لهم عظيم يصب إلى بلاد الخزر يقال له نهر اتل نحو الفرسخ وعلى هذا النهر موضع سوق تقوم في كل مدينة ويباع المتاع الكثير النفيس " (٤٠) .

ويفهم من هذا النص أن هناك سوقا تعقد في كل مدة يتم فيها البيع والشراء وتبادل التجارات ولعل ملاحظة "**ابن فضلان**" بأن هذه المدينة أو الموقع لنهر اتل يكون على فرسخ ملاحظة جديرة بالاهتمام فدائرة المعارف الإسلامية تحدد " **خرائب بلد " بلغار سكوى " أو " سبنسكوى " في مركز " سبسك " من أعمال قازان موقع لحضارة بلغار ، وهذه الخرائب على مسيرة ستة ونصف كيلو متر من الضفة اليسرى لنهر اتل وهذا يتفق تماما مع رواية ابن فضلان التي حددت المسافة بين المدينة والنهر بفرسخ إلا قليلا "** (٤١) .

ويؤكد ابن بطوطة في رحلته هذا القول حيث طلب التوجه إلى مدينة بلغار القريبة من بلغار سكوى السالفة الذكر فأرسل معه السلطان " سلطان الأوزبك " من أوصله إليها ورده منها " (٤٢) .

ويفهم أنها على مسافة قريبة لأنه لم يصف في طريقه أشياءا تبين طول المسافة .

ويواصل ابن فضلان ذكره للتجارة ويقول " كان " تكين "
حدثني أن في بلد الملك رجلا عظيم الخلق جدا فلما صرت إلى
البلد سألت الملك عنه فقال : نعم قد كان في بلدنا ومات ولم
يكن من أهل البلد ولا من الناس أيضاً ، وكان من خبره أن
قوما من التجار خرجوا إلى نهر وهو نهر بيننا وبينه يوم واحد
كما يخرجون وهذا النهر قد مد وطغا ماؤه فلم أشعر يوما إلا
وقد وافاني جماعة من التجار ، فقالوا : أيها الملك ، قد قفا
على الماء رجل إن كان من أمة تقرب منا فلا مقام لنا في هذه
الديار ، وليس لنا غير التحويل ، فركبت معهم حتى صرت إلى
النهر ، فإذا أنا بالرجل وإذا هو بذراعي اثنى عشر ذراعا ،
وإذا له رأس كأكبر ما يكون من القدور وأنف أكثر من شبر
وعينان عظيمتان وأصابع تكون أكثر من شبر شبر فراعني
أمره ، وداخلني ما داخل القوم من الفزع وأقبلنا نكلمه ولا
يكلمنا ، بل ينظر إلينا فحملته إلى مكاني وكتبت إلى أهل ويسو
وهم منا على ثلاثة أشهر أسألهم عنه فكتبوا إلى يعرفونني أن
هذا الرجل من يأجوج ومأجوج وهم منا على ثلاثة أشهر عراة
يحول بيننا وبينهم البحر لأنهم على شطه وهم مثل البهائم
ينكح بعضهم بعضا ... وبيننا وبينهم البحر من جانب والجبال
المحيطة بهم من جوانب آخر والسد أيضاً قد حال بينهم وبين
الباب الذي كانوا يخرجون منه فإذا أراد الله – عز وجل – أن

يخرجهم الىالعمارات سبب لهم فتح السد (*) ونضب البحر وانقطع عنهم السمك – قال ابن فضلان : فسألته عن الرجل فقال : أقام عندي مدة فلم يكن ينظر إليه صبي إلا مات ولا

---

* **سد يأجوج ومأجوج** : ذكر ابن الفقيه أن الواثق بالله لما رأى في منامه كأن السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح فطلب رجلا يخرجه إلى الموضع فيستخبره خبره وعندئذ رد عليه أشناس ما يصلح لذلك إلا سلام الترجمان الذي كان يتكلم ثلاثين لسانا فخرج سلام وقطع طريقا طويلا حتى وصل إلى ملك الخزر وأقام عنده يوما وليلة وأرسل معه هو وصحبه خمسة أدلاء ساروا ست وعشرين يوما ثم واصلوا سيرهم حتى الجبل الذي في شعبه منه السد وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية فسالونا من أين أنتم قلنا : إنا رسل أمير المؤمنين ثم وصلنا إلى مدينة يقال لها " أيكة " تربيعها عشرة فراسخ ولها أبواب حديد يرسل الأبواب من فوقها وفيها مزارع وأرحاء داخل المدينة وهي التي كان ينزلها ذو القرنين بعسكره بينها وبين السد سيرة ثلاثة أيام والسد الذي بناه ذي القرنين هو فج بين جبلين عرضه مائة ذراع وهو الطريق الذي يخرجون منه فيتفرقون في الأرض .

راجع **ابن الفقيه الهمذاني** : كتاب البلدان – تحقيق يوسف الهادي – عالم الكتب – الطبعة الأولى – ١٩٩٦ – ص٥٩٥ إلى ٥٩٧ .

والمقدسي : كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩١ ، ص٣٦٢الى ٣٦٥ .

حامل الاطرحت حملها وكان إن تمكن من إنسانا عصره بيديه حتى يقتله فلما رأيت ذلك علقته في شجرة عالية حتى مات إن أردت أن تنظر إلى عظامه ورأسه مضيت معك حتى تنظر إليها فقلت : أنا والله أحب ذلك فركب معي إلى غيضة كبيرة فيها شجر عظام فتقدمني إلى شجرة سقطت عظامه ورأسه تحتها فرأيت رأسه مثل القفير الكبير وإذا أضلاعه أكبر من عراجين النخل وكذلك عظام ساقيه وذراعيه فتعجبت منه وانصرفت"(٤٣)

ولعل هذا النص يشير إلى ملحوظتين مهمتين أولهما حرص الملك الصقلبي " ألمش بن يلطوار " على تأمين تجارة قومه بدليل أنه تعقب الشخصية الفذة التي أبلغ عن خطرها وراسل شعبا آخر ليجمع المعلومات عن هذه الشخصية ثم خلص قومه من خطرها حتى يؤمن السوق أو طريق التجارة والملحوظة الثانية أن **ابن فضلان** لم يكتف بسماع القصة وإنما أراد أن يكون باحثا مجربا فوصل إلى مكان هذا الرجل ولاحظ بنفسه آثاره لكي يكتب عن حقيقة دلالة على صدقه فيما يروي .

أيضاً ما يفيد الملمح التجاري يقول **ابن فضلان** " وعلى ملك **الصقالبة** ضريبة يؤديها إلى ملك الخزر من كل بيت في مملكته جلد سمور ، وإذا قدمت السفية من بلد الخزر إلى بلد **الصقالبة** ركب الملك فأحصى ما فيها ، وأخذ من جميع ذلك

العشر ، وإذا قدم الروس أو غيرهم من سائر الأجناس برقيق فللملك أن يختار من كل عشرة أرؤس رأسا (٤٤) .

ودلالة على أن الضريبة التي كان يجبيها الملك على سفن الخزر كانت تعد بمثابة مورد تجاري بالنسبة **للصقالبة** وقد لمح ذلك **ابن فضلان** في رحلته .

جـ- من الملامح الدينية عند الصقالبة :

شهد **ابن فضلان** بعض الملامح الدينية عند ملك **الصقالبة** دلالة على تأثره بالإسلام وتأثر بعض رعاياه فمثلا وقوف الملك " ألمش بن يلطوار " لسماع كتاب : المقتدر بالله " الخليفة العباسي وأيضا حينما وصل **ابن فضلان** وهو يتلو الكتاب إلى كلمة " سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وقال له : رد السلام على أمير المؤمنين فرد وردوا جميعا ثم كبروا في نهاية تلاوة الكتاب " .

ذلك من الملامح الدينية التي استجاب " ألمش بن يلطوار " لها .

كذلك أيضاً نلاحظ استجابته لتغيير اسمه من ألمش بن يلطوار إلى جعفر بن عبد الله أمير البلغار مولى أمير المؤمنين.

وعلى هذا اللقب علق " بارتلد " في دائرةالمعارف الإسلامية مشيرا إلى أن ألمش بن يلطوار أطلق علىنفسه الأمير

" بارمان " وهناك نموذج من السكة في غرفة النقود بجامعة " سانت بطرسبورج " [٤٥] .

كذلك لاحظ **ابن فضلان** أن المؤذن يثني الإقامة فقال : للملك " ألمش بن يلطوار " أن مولاك أمير المؤمنين يفرد في داره الإقامة فقال للمؤذن : اقبل ما يقوله لك ولا تخالفه .

ولقد استوجب موضوع تثنية الإقامة مناظرة حدثت بين **ابن فضلان** وملك **الصقالبة** " ألمش بن يلطوار " يظهر فيها الجانب الديني إذا قال للترجمان : " **قل له أي لابن فضلان ما يقول في مؤذنين أفرد أحدهما وثنى الآخر ، ثم صلى كل واحد منهما بقوم أتجوز الصلاة أم لا قلت : الصلاة جائزة فقال : باختلاف أم بإجماع ، قلت : بإجماع ... ويستطرد في بقية المناظرة ويقول : فوالله إني لبمكاني البعيد الذي تراني فيه وإني لخائف من مولائ أمير المؤمنين وذلك أني أخاف أن يبلغه عن شئ يكرهه فيدعو علي فأهلك بمكاني** " [٤٦] .

ولاشك أن هذه المناظرة أعطت لنا لمحة دينية عن تقبل " ألمش بن يلطوار " للدين الإسلامي حتى أنه كان يقرب **ابن فضلان** ويؤثره ويسميه أبا بكر الصديق وربما كان من كنية **ابن فضلان** أن يكنى أبا بكر فأضاف إليه ابن يلطوار الصديق دلالة على صدقه وإشارة إلى أن ألمش يعرف لقب الصديق مما يشير

إلــى وصـــول الإســـلام إليـــه قبــل البعثـــة التـــي كـــانت برفقـــة **ابـن فضــلان**.

ومــن الملامــح الدينيــة أيضــاً والتــي تبيـــن الحـــرص علـــى الصــلاة يقـول **ابـن فضـلان** بعـد لقائـه مـع خيـاط " **ونحـن ننتظـر آذان العتمـة فـإذا بـالآذان فخرجنـا مـن القبـة وقـد طلـع الفجـر ، فقلـت للمـؤذن أي شـئ أذنـت قـال آذان الفجـر ، قلـت : فالعشـاء الآخـرة قـال : نصليهـا مـع المغـرب ، قلـت : فـالليل ، قـال : كمـا تـرى ، وقد كـان أقصـر مـن هذا إلا أنـه قـد أخـذ فـي الطـول ، وذكـر أنـه منـذ شـهر مـا نـام ، خوفـا أن تفوتـه صـلاة الغـداه ، وذلـم أن الإنسـان يجعـل القدر علـى النـار وقت المغـرب ، ثـم يصلـي الغـداة ومـا آن لهـا أن تتضـح** " (٤٧) .

دلالـة علـى حـرص ألمش وأهـل مملكتـه علـى الصــلاة فرغـم قصـر الليـل فـإنهم حريصـون علـى تأديتهـا علـى حسـاب عـدم قومهـم.

ومـن صـوره خياليــة نلمـح الجـانب الدينـي وأثـره فـي فكـر الملـك ألمش حينمـا يـرى **ابـن فضـلان** شـيئا عجيبـا فـي بلـده إذ رأى ذات يـوم " **قبـل مغيـب الشـمس بسـاعة قياسـية أفـق السـماء وقـد أحمـرت احمـرارا شـديدا وسـمع فـي الجـو أصواتـا شـديدة وهميـة عاليـة فرفـع رأسـه فـإذا غيـم أحمـر مثـل النـار قريـب منـه وإذا تلـك الهمهمــة والأصــوات منـــه بمثابــة نــاس ودواب وإذا فـــي أيـــدي الأشـباح التـي فيـه تشـبه النـاس رمـاح وسـيوف تبينهـا وتخيلهـا**

وإذا قطعة أخرى مثلها رأي فيها أيضاً رجال ودواب وسلاح فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة ففزع من ذلك وأقبل على التضرع والدعاء وهم يضحكون منه ويتعجبون من فعله ورفاقه " .

وقد كان يرى **ابن فضلان** ومنه معه حسب روايته أن القطعة تحمل على الأخرى فتختلطان ساعة ثم تفترقان وظل الأمر على ذلك ساعة من الليل ثم غابتا فسأل **ابن فضلان** ومن معه الملك عن هذا الموقف العجيب " فزعم الملك أن أجداده كانوا يقولون أن هؤلاء من مؤمنين الجن وكفارهم يقتتلون في كل عشية وأنهم ماعدموا هذا مذ كانوا في كل ليلة " (٤٨) .

ورغم أن هذا النص يعطي لنا صورة من الصعب تصديقها بسهولة إلا أنها أعطت لنا ملمحا عن وجود الدين عند الملك وحاشيته لأن أجداده هم الذين فرقوا بين كلمتي المؤمن والكافر .

ومما يذكر من الملامح الدينية أيضاً ما يرويه لنا ابن فضلان حيث قال : " **ورأينا فيهم أهل بيت يكونون خمس آلاف نفس من امرأة ورجل قد أسلموا كلهم يعرفون بالبرنجار وقد بنو لهم مسجدا من خشب يصلون فيه ، ولا يعرفون القراءة فعلمت جماعة ما يصلون به ، ولقد أسلم على يدي رجل يقال له طالوت فأسميته عبد الله فقال : أريد أن تسميني**

بأسمك محمدا ففعلت وأسلمت امرأتـه وأمـه وأولاده فسموا كلهم محمدا وعلمته الحمد لله وقل هو الله أحد فكان فرحه بهاتين السورتين أكثر من فرحه أن صار ملك الصقالبة " (٤٩) .

ويواصل ابن **فضلان** عن الملامح الدينية فيقول :

" وارتحل الملك من الماء الذي يسمى خلجا إلى نهر يقال له "جاوشيز " فأقام به شهرين ثم أراد الرحيل فبعث إلى قوم يقال لهم " سواز " يأمرهم بالرحيل معه فأبوا عليه وافترقزا فرقتين فرقة مع ختنه وكان قد تملك عليهم واسمه " ويرغ " فبعث إليهم الملك وقال إن الله عز وجل قد من علي بالإسلام وبدولة أمير المؤمنين فأنا عبده وهذه الأمة قد قلدتني فمن خالفني لقيته بالسيف . وكانت الفرقة الأخرى مع ملك من قبيلة يعرف بملك اسكل وكان في طاعته إلا أنه لم يكن داخلا في الإسلام ، فلما وجه إليهم هذه الرسالة خافوا ناحيته ، فرحلوا بأجمعهم معه إلى نهر " جاوشيز " وهو نهر قليل العرض يكون عرضه خمسة أزرع " (٥٠) .

ومن ذلك نفهم أن الملك الصقلبي يحاول الدفاع عن الإسلام حتى أنه قال من يخالفني لقيته بالسيف وأيضا دخول جماعة كما ورد في النص في الإسلام .

د – من الملامح الاجتماعية عند الصقالبة :

ويذكر **ابن فضلان** بعض الملامح الاجتماعية في بلاد **الصقالبة** فيعرض لحياة الأسرة عند **الصقالبة** قائلا : " **أنه إذا ولد لابن الرجل مولود أخذه جده دون أبيه وقال : أنا أحق به من أبيه في حضنه حتى يصير رجلا وإذا مات منهم الرجل ورثه أخوه دون ولده فعرفت الملك أن هذا غير جائز وعرفته كيف المواريث حتى فهمها** " .

أي أن جد الولد يعتبرنفسه أحق من ولده في حضن ابنه حتى يكون رجلا نافعا وأن الشخص الذي يتوفى يرثه الأخ وليس الابن .

ينتقل بعد ذلك **ابن فضلان** عن الحديث عن القتل العمد وغير العمد فيقول " **وإذا قتل الرجل منهم الرجل عمدا قادوه به، وإذا قتله خطأ صنعوا له صندوقا من خشب الخذنك وجعلوه في جوفه وسمروه عليه وجعلوا معه ثلاثة أرغفة وكوز ماء ونصب له ثلاث خشبات مثل الشبائح وعلقوه بينها وقالوا نجعله بين السماء والأرض يصيبوه المطر والشمس ، لعل الله أن يرحمه فلا يزال معلقا حتى يبليه الزمان وتهب به الرياح**"(٥١) .

ويذكر أيضاً أنه " إذا كانوا يسيرون في طريق فأراد أحدهم البول فبال وعليه سلاحه انتهبوه وأخذوا سلاحه وثيابه

وجميع ما معه ومن خط عنه سلاحه وجعله ناحية وبال لم يعرضوا له .

وذلك من عاداتهم الاجتماعية ربما كان خوفا على السلاح من أن يصدأ إذا تعرض لشئ من الماء أو ربما كان هذا العمل لشئ آخر .

وأيضا من الملامح الاجتماعية أنهم في عادات أكلهم أنهم يأكلون الجاورس وقد مر تعريفه ولحم الدابة والحنطة والشعير وكل من زرع شيئا أخذه لنفسه ليس للملك فيه حق غير أنهم يؤدون إليه في كل سنة من كل بيت جلد سمور ، وإذا أمر سرية بلغارة على بعض البلدان فغنمت كان له معهم حصة ، ولابد لكل من يعترس أو يدعو دعوة من ذلة للملك على قدر الوليمة وساخرخ من نبيذ العسل وحنطة ردية لأن أرضهم سوداء .

أي أن الملك كان يأخذ جلد سمور ولا يعتدي على أملاك الأفراد حتى أنه كان يأخذ من السرية المغيرة على بعض البلدان حصة مما يأخذون حتى كان على قدر الوليمة يقدم للملك جزء .

ومن عاداتهم في حفظ طعامهم أنهم كانوا يحفرون له في الأرض آبار ويجعلون الطعام فيها لكن بمرور الوقت كان يتغير فلا ينتفع به .

ولم يكن لديهم " زيت أو شيرج (دهن السمسم) ولا دهن البتة وإنما يعتمدون في طعامهم على زيت السمك في كل

مـا يطعمـون ، وأيضـا مـن عـاداتهم علمـوا الحسـاء مـن الشـعير وكـانوا يحسـونه الجـواري والغلمـان وربمـا طبخـوا الشـعير بـاللحم فـأكل المـوالـي اللحـم وأطعمـوا الجـواري الشـعير " (٥٢) .

ولاحـظ **ابـن فضـلان** ملمحـا اجتماعيـا آخـر فشـاهد الرجـال والنسـاء يغتسـلون فـي نهـر وهـم جميعـا عـراة لكنهـم لا يقـترفون جريمـة الزنـا لأن مـن ارتكـب تلـك الجريمـة عندهـم عـرض نفسـه للقتـل فكـانوا يضربـون لـه أربـع سـكك ويشـدو يديـه ورجليـه إليهـا ويقطعـوا بالفـأس مـن رقبتـه الىفخذيـه وكذلـك يفعلـون بـالمرأة ثـم تعلق كل قطعـة منـه ومنهـا علـى شـجرة .

" ويذكـر **ابـن فضـلان** أنـه حـاول تغيـير هـذه الظـاهرة الاجتماعيـة فيقـول : ومـازلت اجتهـد أن يسـتتر النسـاء مـن الرجـال فـي السـباحة فمـا استوى لـي ذلـك ، ويقتلـون السـارق كمـا يقتلـون الزانـي " (٥٣) .

وهنـا يلمـح **ابـن فضـلان** أن هنـاك حـدودا لحمايـة المجتمـع منهـا حـد الزنـا ومنهـا حـد القتـل ومنهـا حـد السـرقة بمـا يعد ضوابـط للمجتمـع .

ويكتـب **ابـن فضـلان** عـن المـوت فيقـول وإذا مـات المسـلم عندهـم أو زوج المـرأة الخوارزميـة غسـلوه غسـل المسـلمين ثـم حملـوه علـى عجلـة تجره وبيـن يديـه مطـرد حتـى يصـير بـه إلـى المكـان الـذي يدفنونـه فيـه فـإذا صـار إليـه أخذوه عن العجلـة وجعلـوه

على الأرض ثم خطوا حوله خطا ونحوه ثم حفروا داخل الخط قبره وجعلوا له لحدا ودفنوه وكذلك يفعلون بموتاهم ، ولا تبكي النساء على الميت بل الرجال منهم يبكون عليه يجيئون في اليوم الذي مات فيه فيقفون على باب قبته فيضجون بأقبح بكاء .

هؤلاء للأحرار فإذا انقضى بكاؤهم وافى العبيد ومعهم جلود مضفورة فلا يزالون يبكون ويضربون جنوبهم ، وما ظهر من أبدانهم بتلك السيور حتى تصير في أجسادهم مثل ضرب السوط ، ولابد من أن ينصبوا بباب قبته مطردا ، ويحضروا سلاحه فيجعلونها حول قبره ولا يقطعون البكاء سنتين ، فإذا حطوا المطرد وأخذوا من شعورهم ، ودعا أقرباء الميت دعوة يعرف بها خروجهم من الحزن ، وإن كانت له زوجة تزوجت هذا إذا كان من الرؤساء ، فأما العامة فيفعلون بعض هذا بموتاهم .

وهكذا رأينا **ابن فضلان** يذكر عددا من الملامح الاجتماعية ارتبطت بحال الأسرة والمجتمع وبعض العادات والتقاليد وعلاقة الملك برعيته وبعض الظواهر الاجتماعية الأخرى ننتقل إلى نقطة أخيرة وهي بعض الملامح العلمية .

هـ- بعض الملامح العلمية عند الصقالبة :

رأى **ابن فضلان** أثناء تجواله في بلاد **الصقالبة** بعض الظواهر العلمية التي لفتت انتباهه وأوقفته أمامها من بينها بعض

الصواعق ومعاملة من تنزل عليه وعلى منزله صاعقة يقول " **ابن فضلان " وما رأيت أكثر من الصواعق في بلدهم ، وإذا وقعت الصاعقة على بيت لم يقربوه ويتركونه على حالته وجميع من فيه من رجل ومال وغير ذلك حتى يتلفه الزمان ويقولون هذا بيت مغضوب عليه** " (٥٤) .

وهنا يلمح **ابن فضلان** ظاهرة الصواعق كظاهرة علمية تحتاج إلى نوع من الدراسة كما يلمح أيضاً موقف المجتمع من هذه الصواعق إذا ما نزلت على بيت أحد فإنه من وجهة نظرهم مغضوب عليه وبالتالي لا يتعاملون معه .

ويلاحظ **ابن فضلان** قصر الليل وطول النهار فيقول " **فرأيت النهار عندهم طويلا جدا وإذا أنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل ثم يطول الليل ويقصر النهار ، فلما كانت الليلة الثانية جلست خارج القبه وراقبت السماء فلم أر من الكواكب إلا عددا يسيرا ظننت أنه نحو الخمسة عشر كوكبا متفرقة وإذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب البته وإذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من أكثر من غلوة سهم** " (٥٥) .

وتلك ظاهرة علمية لاحظتها وهي موضوع قصر الليل كما أنه لاحظ عدد من الكواكب تصل إلى الخمسة عشر كوكبا متفرقين كما رأى ظاهرة الشفق الأحمر الذي يسبق المغرب

ويظل فترة طويلة لا يغيب وتلك ظواهر علمية تحتاج إلى وقفات متأنية ليعرف الإنسان كنهها .

ويقول " ابن فضلان " بعد حديثه عن الليل والكواكب " **رأيت القمر لا يتوسط السماء ، بل يطلع في أرجائها ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم " ويسو " الليل عندهم أقل من ساعة**"(٥٦).

وتلك ظاهرة علمية لاحظ فيها أن القمر بعد طلوعه بساعة يطلع الفجر فيختفي القمر كما أنه عقد مقارنة بين بلاد **الصقالبة** وبلاد " ويسو " التي تبعد عن بلاد **الصقالبة** بمسيرة ثلاثة أشهر .

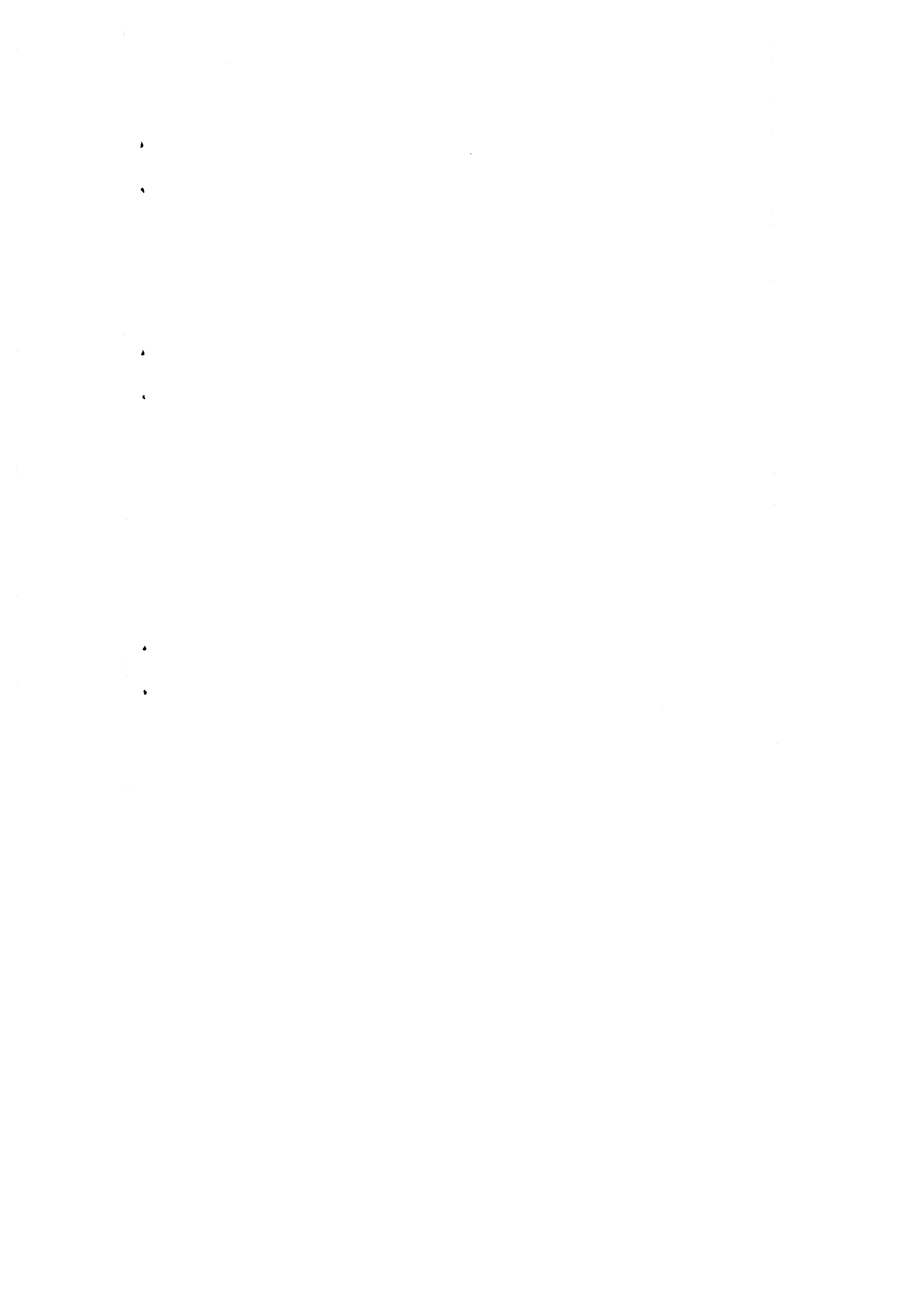
ويلاحظ **ابن فضلان** طلوع الشمس وما يتبعها من آثار فيقول " **ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شئ فيه من الأرض والجبال وكل شيئ ينظر الانسان إليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء ، وعرفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار وعاد النهار في قصر الليل حتى أن الرجل منا لا يخرج إلى موضع يقال له " أتل " بيننا وبينه أقل من مسيرة فرسخ وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى العتمة إلى وقت طلوع**

الكواكب كلها حتى تطبق السماء فإذا برحنا من البلد حتى امتد الليل وقصر النهار (٥٧) .

وهكذا لاحظ **ابن فضلان** طلوع الشمس وتأثيره على بعض مناطق البيئة كالجبال والإنسان وغير ذلك على أنها ترسل أشعة مائلة إلى الاحمرار وتظل هذه الحمرة حتى تتكبد الشمس السماء كما لاحظ قصر النهار لدرجة أن يخرج الإنسان إلى موضع يقال له إتل لا يبعد في المسافة عن فرسخ بل أقل وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى العتمة إلى وقت طلوع الكواكب .

تلك ملامح علمية لاحظها **ابن فضلان** سبقها قبل ذلك بالوقوف على الملامح الاجتماعية وسبق تلك أيضاً بالوقوف على الملامح الدينية ومن قبلها تكلم على الملامح الاقتصادية وسبقها بحديث عن رسوم **الصقالبة** .

هذا ما استطعنا قدر الجهد والطاقة أن نجلي النقاب عنه من الملامح الحضارية **للصقالبة** ، وسأحاول في بحث قادم إن شاء الله أن أتحدث عن رسوم الخزر .



حواشي البحث

(١) ياقوت الحموي : ت ٦٢٦هـ

معجم البلدان – المجلد الثالث – بيروت – لبنان ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م ، ص٤١٦

(٢) المسعودي : ت ٣٤٦هـ

مروج الذهب ومعادن الجوهر – الملجد الثاني – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٩م ص٣١ ، ٣٢

(٣) الطبري : ت ٣١٠هـ

تاريخ الأمم والملوك – جـ١ ص٤٥ – حوادث ٢٨٣هـ .

(٤) أبو الفدا : ت ٧٣٢هـ

المختصر في أخبار البشر – الجزء الثاني ، ص٦٠ .

(٥) كراتشكوفسكي " أغناطيوس يوليانوفتش :

تاريخ الأدب الجغرافي العربي – الطبعة الثانية – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م – بيروت – لبنان – ص٢٠٢ – نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم .

د. عبد الله بن حسن العبادي :

الفكر الاجتماعي وتطوره عند العرب والمسلمين جامعة الملك سعود – قسم الدراسات الاجتماعية – ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م – ص٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

(٦) ابن فضلان :

رسالة **ابن فضلان** – تحقيق دكتور سامي الدهان مكتبة الثقافة العالمية – بيروت – لبنان – ١٩٨٧م الطبعة الثانية ، ص٦٧ ، ٦٨ ، ومقدمة التحقيق ص٢٢– ٢٣.

دائرة المعارف الإسلامية :

مادة بلغار.

(٧) راجع فصول رسالة ابن فضلان :

ص ٦٧ إلى ص١٧٢ .

(٨) ابن مسكويه : ت ٤٣١هـ

تجارة الأمم – طبع آمد دروز بالقاهرة – ١٩١٤ ، جـ٥ ص٥٣ .

أبو الفدا :

المصدر السابق ، جـ٢ ص٦٩ .

(٩) د. سـامي الدهـان :

مقدمـة تحقيـق رسـالة **ابـن فضـلان** ص٢٢ – ٢٥ .

(١٠) ابـن فضـلان :

رسالة **ابـن فضـلان** – ص٧٣ .

(١١) ابـن فضـلان :

المصـــدر الســـابق – ص٧٣ ،٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .

(١٢) ابـن فضـلان :

نفـس المصـــدر – ص٧٦ –٧٧ .

(١٣) ابـن فضـلان :

نفـس المصـــدر – ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ .

(١٤) ابـن فضـلان :

نفـس المصـدر – ص٨٣ .

(١٥) ابـن فضـلان :

نفـس المصـدر – ص٨٤ .

(١٦) ابـن فضـلان :

نفـس المصـدر – ص٨٥ .

(١٧) ابـن فضـلان :

المصـدر السـابق ، ص٨٦ .

(١٨) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(١٩) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ٨٧ – ٨٩ .

(٢٠) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .

(٢١) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢٢) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص١٠٣ .

(٢٣) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٠٥ ، ١٠٧ .

(٢٤) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

يـاقوت الحمـــوي :

المصـدر السـابق ، ص ٤٨٦ ، مـــادة بلغـــار .

(٢٥) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

ياقوت الحموي :

المصدر السابق والصفحة ، مادة بلغار .

(٢٦) ابن فضلان :

المصدر السابق ، ص ، ١١٥ ، ١١٦ .

ياقوت الحموي :

المصدر السابق ، ص ٤٨٦ ، مادة بلغار .

(٢٧) ابن فضلان :

المصدر السابق ، ص ١٣١ .

ياقوت الحموي :

المصدر السابق ، ص ٤٨٨ ، مادة بلغار .

دائرة المعارف الإسلامية :

مادة بلغار .

(٢٨) ابن فضلان :

المصدر السابق ، ص ، ١١٧ ، ١١٨ .

ياقوت الحموي :

المصدر السابق ، ص ٤٨٦ ، مادة بلغار .

(٢٩) ابن فضلان :

المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٣٠) ابـن فضــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

يـاقوت الحمـــوي :

المصـــدر الســـابق ، ص٤٨٨ .

(٣١) ابـن فضــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٢٩ .

د. عبـد اللـه بـن حسـن العبــادي :

المرجــع الســـابق ، ص٤٥ .

(٣٢) ابـن رســته :

كتــاب الأعــلاق النفيســة ، المجلـد الســـابع ، ص١٤١
مطبعـة ليــدن - بريــل - ١٨٩١م .

(٣٣) ابـن رســته :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٤٣ .

(٣٤) ابـن فضــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٤٢ .

(٣٥) ابـن فضــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٢٤ .

دائـرة المعـارف الإسـلامية :

مـادة بلغـار .

(٣٦) دائـرة المعـارف الإسـلامية :

مـادة بلغـار .

(٣٧) ابـن فضـلان :

المصـدر السـابق ، ص ١٣٣ .

(٣٨) ابـن رسـته :

المصـدر السـابق ، ص ١٤١ .

(٣٩) ابـن فضـلان :

المصـدر السـابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٤٠) ابـن فضـلان :

المصـدر السـابق ، ص ١٣٦ .

(٤١) دائـرة المعـارف الإسـلامية :

مـادة بلغـار .

(٤٢) ابـن بطوطـة :

رحلـة ابـن بطوطـة ، شـرح طـلال حـرب ، دار الكتب العلميـة ، بـيروت ، لبنـان ، الطبعـة الأولـى ، ١٩٨٧ ، ص٣٥٠ .

(٤٣) **ابـن فضـــلان :**

المصــــدر الســـابق ، ص ١٣٦ - ١٤٠ .

(٤٤) **ابـن فضـــلان :**

المصــدر الســابق ، ص ١٤٥ .

(٤٥) **دائــرة المعــارف الإســلامية :**

مــادة بلغــار .

(٤٦) **ابـن فضـــلان :**

المصــــدر الســـابق ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٤٧) **ابـن فضـــلان :**

المصــــدر الســـابق ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

ابـن بطوطــة :

المصــــدر الســـابق ، ص ٣٥٠ .

(٤٨) **ابـن فضـــلان :**

المصــــدر الســـابق ، ص١٢٣ ، ١٢٤ .

يـاقوت الحمـــوي :

المصدر السابق ، جـ١ ، ص٤٨٧ ، مـــادة بلغــار .

(٤٩) **ابـن فضـــلان :**

المصــــدر الســـابق ، ص ١٣٥ .

(٥٠) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٥١) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٣٢ .

(٥٢) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٣٠ .

د. عبـد اللـه حسـن العبـــادي :

المرجـــع الســـابق ، ص٤٦ .

(٥٣) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٣٤ .

(٥٤) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٣٢ .

(٥٥) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٢٥ .

(٥٦) ابـن فضـــلان :

المصـــدر الســـابق ، ص ١٢٦ .

(٥٧) ابـن فضـــلان :

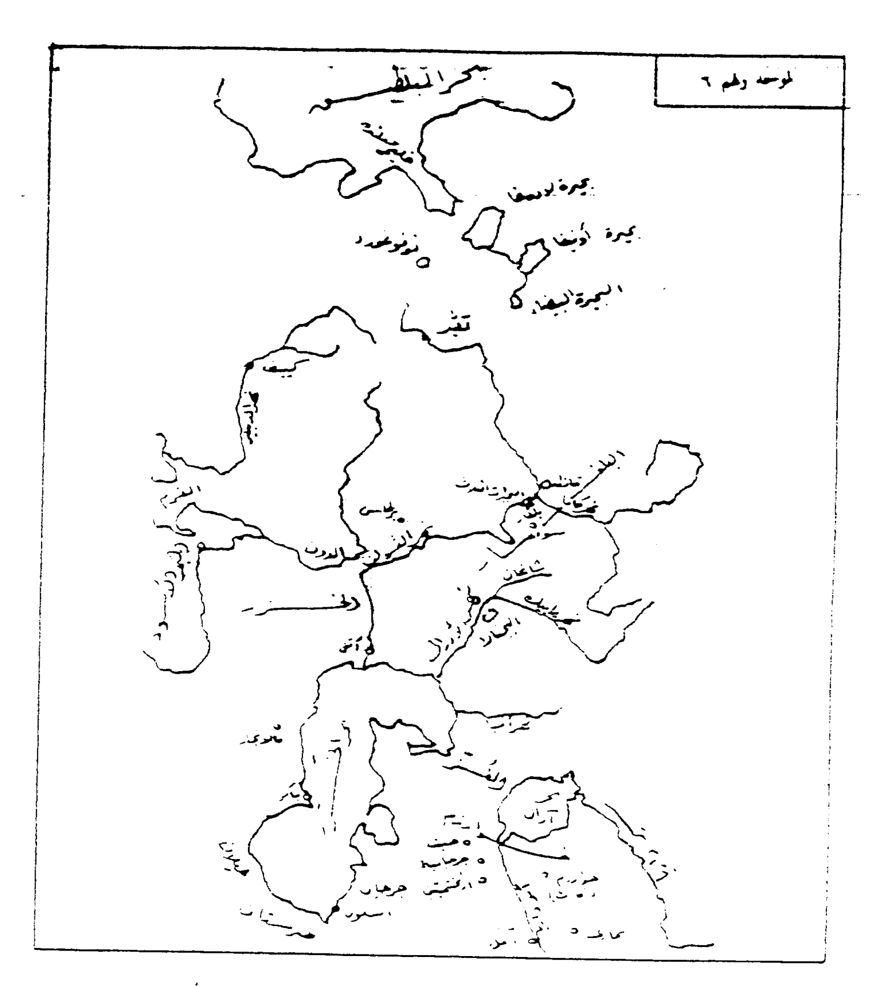
المصـــدر الســـابق ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

ابـن بطوطـــة :

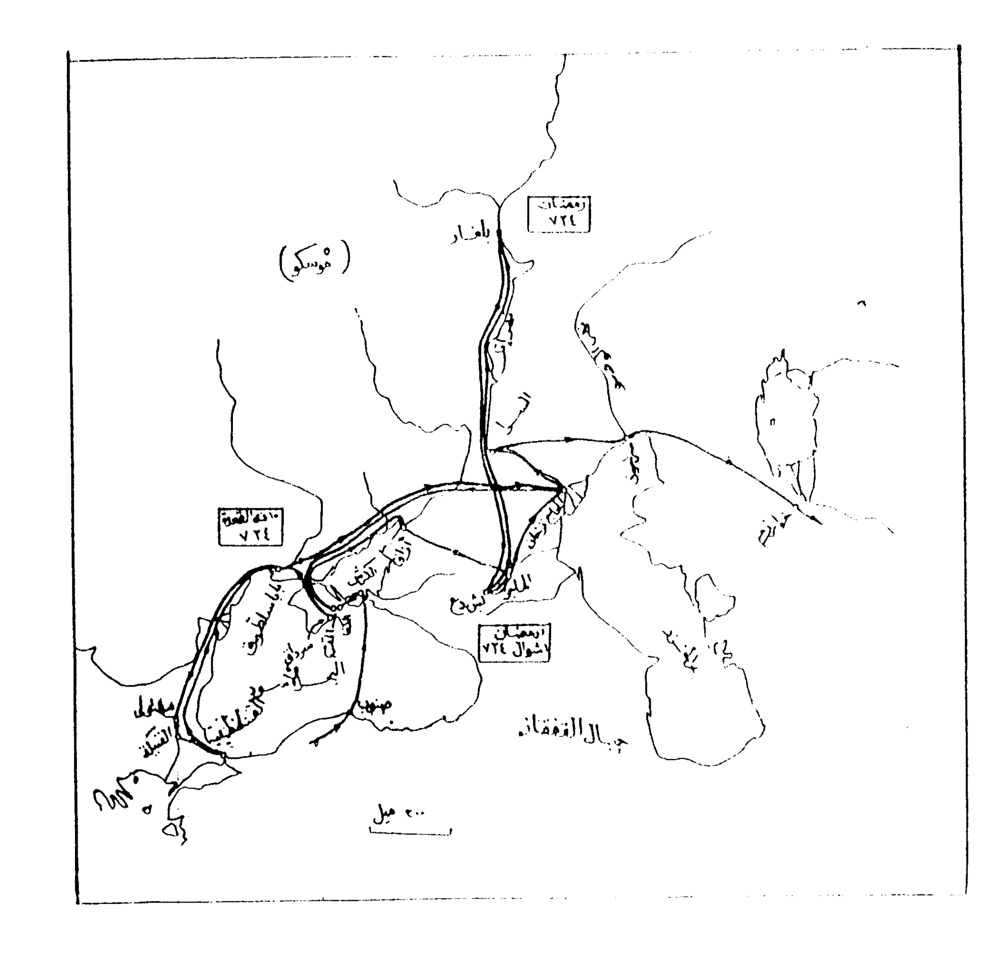
المصـــدر الســـابق ، ص ٣٥٠ .



الملاحـــق



القسم الثاني ــ مخطط الأماكن التي وردت في رحلة ابن فضلان ، كما رسمها الأستاذ كامار في الترجمة
[من بخارى إلى بلغار]


(موسكو)
بلغار
٧٢٤
جبال القفقاز
٢٠٠ ميل

المحتـــــوي